

مقاربة سيميائية لمتون سياسية مغربية

المصطفى شادلي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

0- سأوظف النظرية السيميائية (1) التي تعد نظرية عامة للدلالة، موضوعها هو الخطاب أكان حكايا أم حجاجيا أم إخباريا أم تفسيريا. وكل خطاب يشكل في حدوده النصية المتعارف عليها وحدة سيميائية تتداخل فيها مستويات اللغة والحكي والوصف، وتندغم فيها الأنساق المعرفية والثقافية والذهنية. وإذا كان الخطاب الحكائي يبحث عن إثارة المسرود له وإمتاعه بعوالم تخيلية، فإن الخطاب الحجاجي يتوخى البرهنة والحجاج لتغيير معتقدات وسلوكات المتلقي، ولهذا الغرض، يوظف الخطاب الحجاجي مجموعة من الأدوات اللغوية والصيغ الخطابية والأساليب الإنشائية لإدراك المتبغى وإقناع المتلقي.

1- يتسم الخطاب السياسي بالتجذر (anchrage) في التاريخ وعلم الإناسة. ومعنى آخر، فهو يرتبط بالظرفية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يمر بها البلد والعالم. وما يميز الخطاب السياسي المعاصر بالمغرب، أنه مشغول ومهموم بالمسألة الدستورية منذ سنة 1906. ومن بين المحطات التي أثرت فيها هذه المسألة، نذكر على سبيل المثال: مشروع دستور 1908 بطنجة (2)، وخطاب المغفور له الملك محمد الخامس بالمدينة نفسها سنة 1947، ووثيقة الاستقلال المؤرخة في 11 يناير 1944، ثم دستور 1962، ثم التعديلات والمراجعات التي واكبت مع مطلع التسعينات إلى اليوم مسيرة إرساء دولة الحق والقانون ومهدت للتناوب بإرادة المغفور له الملك الحسن الثاني.

وتمشيا مع روح العصر ومع وتيرة بروز النخب ونضجها، اتخذ الخطاب أشكالا من التجليات

النصية:

- الخطاب الكلاسيكي أو التقليدي الذي يلقي على مسامع جمهور هيئة محددة (الحزب، الحكومة، الجمعية، مجلسا النواب والمستشارين).
- الخطاب السمعي - البصري الذي يث على أمواج الإذاعة والتلفزة، مرسخا في أذهان الجماهير العريضة سلوكات النمطية والامتثالية.

- الخطاب الصحفي الذي يراهن على استقطاب فئات جديدة من القراء بتحسين الخدمات، والمراعاة على المهنية والاحترافية. وقد عرفت الصحافة المغربية ازدهارا كبيرا في العقدين الأخيرين نتيجة تزايد عدد الصحف، وتوسع دائرة القراء، و بروز الصحف المستقلة والمتخصصة.

- الخطاب غير المباشر الذي يتسرب عبر الحوارات المكتوبة (الصحف والمجلات والأسبوعيات) أو الشفهية (الإذاعة والتلفزة).

- خطاب المذكرات الذي يسترجع سوابق الذات في علاقتها بالآخرين والأحداث. ونذكر على سبيل المثال ذاكرة ملك للمغفور له الحسن الثاني، ومذكرات الفقيه البصري الذي حاول من خلالها معاودة كتابة تاريخ الحركة السياسية بالمغرب متحملا ما يرافق ذلك من جدل ومحكمة وتشكيك.

- كتابات البورتريه التي ازدانت بها في العقد الأخير كبريات الصحف المغربية، ونخص بالذكر الاتحاد الاشتراكي، والعلم، والأحداث المغربية.

- جمع ونشر ما كتبه بعض القادة التاريخيين أمثال محمد حسن الوزاني، علال الفاسي، عبد الخالق الطريس، أحمد بنسودة، أحمد بلافريج، علي يعنة.

- خطاب الكاريكاتور الذي أخذ ينتعش مع الفيلاي وبلعيد والصبان.

- زوايا صحفية ثابتة أسبوعيا. نذكر منها زاويتين (نافذة عبد الرفيع الجوهري بجريدة الأحداث المغربية، والحقيقة الضائعة لمصطفى العلوي بالأسبوع) تمزجان بين الجدل والهزل، ثم نضيف إليهما زاوية تعرف بالجوانب الذاتية في مسار رجل السياسة (حياته كإنسان داخل أسرته ومجتمعه)، وهي زاوية "بعيدا عن السياسة قريبا من..." بجريدة الأحداث المغربية (3).

2- يتكون المتن الذي اعتمدت عليه مما يلي :

أ- وثيقة الفقيه البصري.

ب- بورتريهات (عبد الرحمان اليوسفي، أحمد بنجلون، أبراهام السرفاتي، الفقيه البصري، محمد بن سعيد آيت إدير، عباس الفاسي، عبد الرزاق أفيلال).

د- مكاشفات امحمد العنصر، وأحمد الريسوني، وعبد الكريم الخطيب، وعائشة بلعربي.

3- أنطلق من مسلمة منهجية تركز على محايدة بنية الخطاب وانغلاقها واستقلاليتها. وهكذا يتحدد الخطاب السياسي بوصفه بنية حجائية تتوسل بطرق استدلالية ومعطيات مبرهنة لتحقيق الهدف المتوخى. ويمكن أن نعتبره برنامجا إقناعيا يندرج ضمن برنامج تلفظي عام يستقطب عوامل التلفظ التالية: متلفظ - خطاب - متلفظ له.

يقوم هذا البرنامج على فعل الإقناع الذي يوظف العينات الاستهوائية (الإثارة، والإعجاب، والإغراء، والتهويل) ويسرد الأحداث والطرائف والغرائب، ويستحضر العناصر الإيجابية في الثقافة الشعبية، ويلطف الأجواء بالنكتة والهزل، وذلك لجلب اهتمام فئات عريضة من القراء، وتغيير معتقداتهم، وإحباط تأويلاتهم المغرضة.

نجد في كل خطاب تعارضا وتقابلا بين عالين متباينين : عالم المتلفظ الذي ينعت بمثير الانفعال (pathos)، وهو جماع من الوسائل والطرق التي يستعملها المتكلم لإثارة المتلقي وتحريك عواطفه وإحساساته، ثم عالم المتلفظ له، ويوصف بالإيطوس (ethos)، أي مجموع المعتقدات والذهنيات والعادات الثقافية التي يخرتها المتلقون. ولا يعني التباين والتباعد بين العالمين تعذر تقاطعهما. فبإمكان المتلفظ أن يتقاسم مع المتلفظ له المعتقدات نفسها، ويشاطره القضايا الضرورية والبدئية والمسلم بها. وفي هذا الصدد، يساعدنا مفهوم العالم الممكن على النحو المستخدم في فلسفة اللغة والمنطق اللساني والسرديات على فهم آليات الخطاب السياسي. فكل خطاب يتضمن عوامل ممكنة (4) تتقاطع وتتفاعل فيما بينها على الدوام :

- عالم صاحب الخطاب : إنه في الآن نفسه منتج ومتلفظ، يتمتع بوضع قانوني أو مؤسسي، ومرجعيات ثقافية ينبغي للمتلفظ له استيعابها.

- عالم المتلفظ له : يؤول ما يعرض عليه مشغلا خلفياته المعرفية والذهنية، ولا يعد عنصرا سلبيا يكفي فقط بتلقف المعلومات، بل عنصرا إيجابيا في ملء البياضات والفرج، والكشف عن المضمرة والمسكوت عنه، وتحصين معتقداته ورؤيته للوجود.

- عالم الخطاب : ينتظم وفق قوانين متعارف عليها (النمط، والجنس، والنوع)، ومقتضيات السياق الاجتماعي والسياسي (الاستهلال، التدرج الموضوعاتي، المستويات اللغوية).

يرتفع انصهار هذه العوامل في بعضها البعض أو تناوبها وتباينها بقدرتها المتلفظ على مجارة تنظرات المتلقي وترقبته، والاحتفاظ بضوابط الخطاب ومكوناته. ينطلق كل خطاب من مسلمة بسيطة مفادها حفز المتلقي على الانجذاب إلى عالم المتلفظ، ومشاركته اعتقاداته، وإثارة النعرة والنخوة من معاطسه، وإدخاله شيئا فشيئا إلى لعبة الخطاب وجدليته :

1- - "أنت تدرك جيدا أن القضية .."

2- أنا واثق من نضجك ووطنيتك .."

3- "إن سألت قلبك، فسيقول لك .."

4- "إننا جميعا مواطنون أوفياء وأبناء هذا الوطن .."

5- "أنت تعلم أنه من مصلحتك أن تقوم .."

تعتبر هذه العقيدة الاستثنائية والتلفظية (توافق ضمني) بين عاملي التلفظ (المنتج والمستهلك) حجر الزاوية في الاستراتيجية الخطابية للتحكم في ضوابطها وقواعدها، والتأثير في متلق محتمل. وغالبا ما يلجأ المتلفظ إلى السرد والملاطفة، بل أحيانا إلى المكاشفة والاعتراف من أجل إعادة ترتيب الأوراق، وإمالة اللثام عن الحقيقة الملتبسة والنغمة الضائعة.

ففي الاستجواب الذي أجرته أسبوعية *Le Journal* مع أبراهام السرفاتي نستشف ما يلي :

- الاعتراف الدرامي بالتعذيب النفسي الذي مورس على بعض الرفاق داخل الزنزانة وخارجها.

- استحضار عفوية الثقافة الشعبية المغربية المتضمنة للسخرية والنكتة "إذا كان السرفاتي برازيليا، فيجب إرجاعه إلى المغرب لتدريب الفريق الوطني لكرة القدم".

- توظيف المحاكاة السخرية لنقد التضامن العربي : "خلال الحصار الذي شهدته بيروت سنة 1982، ودام أربعة وسبعين يوما، شهدنا تظاهرة شعبية كبيرة في عاصمة عربية. هل تعلم ماذا كانت هذه التظاهرة ؟ نزل الجزائريون إلى الشارع محتفين بالفوز الذي حققه فريقهم على ألمانيا في مونديال إسبانيا. هذا هو العالم العربي".

إبان الاحتكاك بالخطاب السياسي المغربي تتبادر إلى الذهن الأسئلة التالية :

أ- هل المخاطب يكذب أم يقول الحقيقة ؟ وما الحقيقة في الخطاب السياسي، وما منظوره الخاص ؟

ب- هل المخاطب صادق أم ماكر ؟ وكيف يجب تلقي الخطاب السياسي ؟

وفي هذا المضمار نحيل إلى وثيقة الفقيه البصري التي تتمحور حول قضية الديمقراطية بالمغرب.

ومن هنا نستنتج النتائج التالية :

1- "أصبحت المعادلة تلتخص في كون الفرنسيين المختصين في الدستور يضعون الصيغ، والسلطة

تعرض على الاستفتاءات والنخبة تبرز (مواقفها) من مواقعها القيادية .."

2- "لن الأولوية ؟ هل للاستقلال أم لرجوع محمد الخامس ؟" فجاء الحسم مرة أخرى، وتأجل

الاعتراف بالاستقلال إلى ما بعد الحد الزمني الذي رجح فيه محمد الخامس مع عائلته يوم 16 نونبر

1955، إذ لم يعلن الاعتراف بالاستقلال إلا في 2 مارس 1956، بينما غاب الحديث عن "المؤسسات"

التي لم يقع التفكير فيها إلا بعد حوالي سنة.

3- "الحزب الذي يقود الحكومة مثلاً، ما فتى يشكو من ركود أو ما يشبه بداية تصلب في شرايينه نتيجة عدم تجدد دمائه منذ عشر سنوات. فرغم أن قوانينه تقول بعقد مؤتمر كل ثلاث سنوات، فإنه لم يعقد مؤتمراً منذ زمان..."

إن التاريخ وحده هو الكفيل والخليق بالصدق بالحقيقة. ومن الصعوبة بمكان الإقرار بجواهر الأمور وإثبات صحة الوقائع في وقت مازال مجابلو البصري على قيد الحياة أو يشغلون مواقع سياسية حساسة. المؤرخ الأمين سيحتاط من الأحداث المروية بإقامة مسافة تفصله عنها، وذلك ليبدد ما اكتنفها من مشاعر، ويميز الحقيقي فيها من الزائف. وللسيميائي طريقته الخاصة في الكشف عن الحقيقة الكامنة في النص. يركز على التحقق (Véridiction) لفضح مقاصد المتلفظ وإحباط خدعه، وبيان مرآته على إقناع المتلفظ له بمعتقداته وآرائه، وتوضيح المسارات التي تتبعها الحقيقة أو تتخذ فيها أشكالاً أخرى (السر، الخطأ، الكذب) (5).

4- في إطار السيميائيات السردية، يشتغل الحلل بمفهوم الحكمي معتبراً إياه فرضية منهجية للعمل. فكل خطاب مهما كانت خاصيته وأهدافه المعلنة والمستترة يحكي في آخر المطاف حكاية ما. وأنطلق من الفرضية نفسها معتبراً أن نصوص المتن تسرد قصة معينة. وترتبط هذه القصة بأهواء طرفي التلفظ على حد سواء. وأذهب بعيداً بخيالي لأؤكد أن تاريخ البشرية بصدماته وتوافقاته ما هو إلا تاريخ الأهواء البشرية. ويشخص الخطاب السياسي هذه الأهواء بطريقته الخاصة. وأستعرض فيما يلي الأمثلة التوضيحية :

4-1 نص حوار أبراهام السرفاتي :

1- "بالنسبة لي، الماركسية هي أساساً منهجية. إنها منهج تحليلي للمجتمعات وللدينامية الاجتماعية. الماركسية أضافت نقداً للرأسمالية - لا غير - إنها ليست نموذجاً أو بوصلة التاريخ".

2- "إنه عذاب النفس، إنه شيء رهيب أن يكون المرء سجيناً رفقة أصدقاء تحولوا إلى أعداء. فبعد رجوعي إلى سجن القنيطرة سنة 1979، اهتديت إلى مصدر هذا الداء واتخذت إجراءات (تأديبية) ضد رفقائي في منظمة إلى الأمام وشهوراً من بعد ذلك، عملت على إصلاح الأخطاء الجسيمة التي ارتكبت على الصعيد المعنوي". أسبوعية لوجورنال، ع. 71، 1999.

تهيمن على هذا النص الحوارية ما يمكن تسميته بالمثالية الثورية. إنها قصة رجل وحركة سياسية متطرفة تسترجع مرارة التجربة وقساوة ظروفها، وتحين المسارات الاستهوائية المرتبطة بها (الاعتقال، والتعذيب، والانشقاق، والتهميش، والنفي، والاعتراف). إن الطابع الاستهوائي الذي يغلب على ردود

السرفاتي هو حب المطلق والتروع إلى المثالية الفاضلة واليوطوبيا، والغوص في الذات لتأمل الأخطاء كمرابا مجلوة ودروس لأخذ العبر الضرورية.

4-2 نص الفقيه البصري :

1- " ويذكرون أنني كنت أقول : "سيرجعنا الاستقلال إلى السجن" "

2- " وأنا شخصيا كنت من الذين وقفوا ضد ذلك الاندفاع. واعتبرنا أن علينا أن نراجع الأخطاء ونعمل على تنمية الحوار، وعلى بناء المؤسسة (الوطنية)، ونتيح خلالها للقيادة السياسية إمكانية مراجعة وتصحيح الأخطاء، أما التصفية الجسدية فليست اختيارا سليما ولا مقبولا، ذلك لأن البندقية وجدت لتكون ضد الاستعمار لا لتوجيهها ضد بعضنا البعض .."

- " ويظهر أيضا عنصر آخر، ولعله مازال موجودا، وهو أن لجم المجتمع القوي بكل شرعيته لم تستطع القيادة السياسية تحمله، مثلما لم تتحمله الدولة. ومن هنا أكدت حركة المقاومة وجيش التحرير على الاهتمام بوحدة التراب الوطني" (6).

إنها محاولة لإعادة كتابة تاريخ الكفاح السياسي المغربي من سنة 1906 إلى سنة 1999. وقد أثار بحكم جرأتها ومحاورتها لمرحلة حساسة ردود فعل متباينة. ومن بين ما حفز على إثارة زند النقاش هو اللغة المستعملة. فهي لغة مرموزة تحتاج إلى مطلع على تاريخ المغرب أو شاهد عيان لتفكيك شفراتها، وتستدعي تحيين الأحداث الجسام والعوامل التلفظية التي اضطلعت بوافرها (جلالة الملك، الحركة الوطنية، المقاومة المسلحة، وجيش التحرير، القيادات التاريخية). وما يلفت النظر في خطاب الفقيه البصري هو حفوله بإيحاءات كثيرة، وتعدد وتقاطع مرجعياته المختلفة. فهو حاذق في سرده، يتمتع بذاكرة قوية تعود بنا إلى مشروعات دساتير 1906 و1908، ثم سرعان ما يثب إلى التسعينات لمعاينة تجربة التناوب التوافقي. وكذلك ارتكازه على مرجعية القومية العربية ودفاعه عنها بحماس، وعلى الاشتراكية، وعلى التحررية من رواسب الاستعمار.

ويستعين البصري بذاكرته القوية لعقد المقارنات والموازنات، واستخلاص العبر والثوابت والمتغيرات، وانتقاد الهفوات والهفوات التي تتخلل المسيرة الديمقراطية بالمغرب.

1- "الحقيقة أن جوهر الدستور لم يتغير، ولكن رأي القيادة السياسية هو الذي تغير".

2- "ويبقى السؤال الفصل هو : متى تكون الحياة الحزبية مدرسة للديمقراطية قبل نقلها إلى ميدان

الحكم ؟ الصحيفة، ع. 24، 1999.

من خلال هذين الاستشهادين يتضح أن البرنامج الحكائي للعامل الذات (actant sujet) يسعى إلى تحقيق الذات الجماعية (الوطن) بواسطة آليات مؤسسية وذوات فردية متمتعة حقا بصفة المواطنة. ترهن جهة / الرغبة في الفعل / برغبة الذات التي تجد نفسها مطوعة بجهة / وجوب الكينونة / المتمثلة في التاريخ أو المتحدث عنه بوصفه هكذا. ويعطينا هذا المسار ذاتا مؤهلة تتمتع بالقدرة على الفعل، وتتسم بالمقومات الجهمية التالية: / الرغبة في الفعل / وجوب الفعل / و / القدرة على الفعل /. وذلك بغية تحقيق / رغبة الذات / على الصعيدين الفردي (الحفاظ على الزعامة السياسية) والجماعي (المراهنة على مجتمع ديمقراطي ووطن مزدهر). ويبقى التساؤل حول ماهية السياسة قائما. هل هي تحقيق المرغوب فيه أم تدبير الممكن؟ فعموما، ما يميز الخطاب السياسي هو كونه خطابا يتزع دوما إلى الإقناع، ويتحكم في مساره العام برنامج حكائي تطويعي (programme narratif de manipulation)، يستند المتلفظ خلاله إلى جهة / فعل المعرفة / لدعم كلامه بالحجج والبراهين اللازمة، والاستعانة بالمرجعيات الثقافية والذهنية ليصل إلى مبتغاه المتمثل في إقناع المتلفظ له وحمله على اعتقاد وتصديق ما يبثه له (faire-croire).

إن المكاشفات التي تثار فيها قضايا إنسانية وسيرية، تكمل الجانب السياسي، وتقرب من الحكيم أكثر من الخطابات العقائدية أو الحوارات السياسية الخالصة. ونقدم فيما يلي نموذجا من زاوية "بعيدا عن السياسة قريبا من..." (7).

4-3 نص عبد الكريم :

1- "إذا كان هناك تأثير حقيقي (على شخصيتي)، فهو لشاعر الجاهلية عنتر بن شداد (يضحك)، ومازلت أتذكر حتى الآن معلقته التي يقول فيها :

حكم سيوفك في رقاب العزل	وإذا نزلت بدار ذل فارحل
وإذا بليت بظالم فكن ظالما	وإذا بليت بذي جهل فاجهل
فاختر لنفسك متزلا تعلقو به	أو مت كريما تحت ظل القسطل (8)

2- "أما في الأشكال الأخرى (الفنية) سواء كانت لمغاربة أو أجانب بما في ذلك لوحات بيكاسو، فبكل صراحة لم أفهم شيئا لأنني أرى الغموض، ولدي في متري لوحات أحتفظ بها للفنان الباز وأخرى أيضا رسمها السي المحجوبي أحرضان وقدمها لي كهدية..."

4-4 نص أحمد الريسوني :

3- "قرأت في الشعر لترار قباني وقد طالعت له ما كتب آنذاك.

وأتيحت لي فرصة الاستماع إليه مباشرة، قرأت كذلك لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وسلامة موسى. كما طالعت مسرحيات شكسبير وموليير..."

4- "تقطع بي الحبل) في مالي ولم يكن معي ما يكفي من العملة، واضطرت للسفر عبر البر ليلا...".

4-5 نص امحمد العنصر :

5- "الحنين إلى إموزار مرموشة، إلى أم كانت تحمل ابنها الوحيد كلما تساقطت الثلوج...".

6- "عشت أزمة داخلية لمدة سنتين بسبب تدخلتي لتوجيه أحد أبنائي، لكن اختياري لم يكن يلائم ميولاته، وانتظرت إلى أن مرت السنتان بسلام".

7- "أفضل دائما أن أكل ما كنت أتناوله في صغري : الكسكس والصيكوك والطجين باللفت".

4-6 نص عائشة بلعربي :

1- لم أولد لا كاتبة ولا باحثة ولا دكتورة. لذا فإن لقب المواطنة يظل أفضل الألقاب بالنسبة لي".

2- "العمل بالمطبخ لا يحط من قيمتي... إنه من الإبداع والتجديد لا يقل شأنًا عن الكتابة والفن".

3- "دراسة أولادي جميعا كانت علمية، لأن الدراسات الاجتماعية" ما بقاتش كتخرج".

من خلال النماذج الأربعة، نلاحظ أن المرجعيات تختلف بحكم النشأة والوسط الاجتماعي وطبيعة التعليم والثقافة المكتسبة، وتتقاطع أحيانا في استحضار أهم الأعلام الذين أثروا في جيل بأكمله. وهكذا نعاين تواتر أسماء بعض الكتاب والشعراء المشهورين (عنترة بن شداد، نزار قباني، سلامة موسى، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، محمد عبد الحليم عبد الله). يطفو العالمي على السطح في شكل رواسم لأسماء معروفة على نحو بيكاسو، وموليير، وشكسبير. في حين يكاد الأدب والفن المغربيان يكونان مغييبين. فباستثناء الإشارة إلى الباز والمحجوي أحرضان، لا نجد أسماء بارزة أخرى. وتشارك الملفوظات في هيمنة الطابع الشفهي المتمثل أساسا في توظيف تعابير ورواسم لغوية مسكوكة مستوحاة من العامية المغربية، وفي وجود تقاطع بين الفطرة الشعبية المتوارثة عن أسلافنا وبين الفكر العقلاني الصارم. ولا بد من التنويه بالصورة الشعرية الجميلة في النموذج الثالث، وتكمن في أم حنون تحمل ابنها الوحيد متحملة عناء المسالك الجبلية الوعرة وتساقط ندف الثلج. إن الصورة - بلغة رولاند بارط - تنطلق من المشهد الأيقوني وتأتي لتخترق المتلقي وتخزه وتجرحه كسنان حاد (punctum) (9).

4-6 هناك زاوية أخرى تثير اهتمام القراء، وهي زاوية "نافذة" لعبد الرفيع الجوهري. ولقد لقيت نجاحا كبيرا منذ الشروع في إعدادها بجريدة الاتحاد الاشتراكي بحكم جمعها بين الجد والسخرية،

وبقدرتها على تطويع المستويات اللغوية (الفصحى، العامية، والتهجين، والأسلية، والمحاكاة الساحرة، والأمثال)، وتوظيفها حسب طبيعة المرحلة السياسية والموقع السياسي والاجتماعي والجغرافي للمنقود. وازدانت جريدة الأحداث المغربية بهذه الزاوية التي حوفظ على وتيرتها في انتقاد الحكومة. ومن بين النوافذ التي أطل منها صاحب "القمر الأحمر" على صخب وقلق أبي رقرق، نذكر ما يلي :

- 1- "هيلو كيكي"، الأحداث المغربية، 4 نونبر 1998.
- 2- "التشيرة"، الأحداث المغربية، 11 نونبر 1998.
- 3- "الحمد لله... لقد وحدنا الزكام، الأحداث المغربية، 9 دجنبر 1998.
- 1- "برلمان الملائكة"، الأحداث المغربية، 3 فبراير 1999.
- 2- "ديمقراطية سيدي فرج، الأحداث المغربية، 10 فبراير 1999.
- 3- "على نخب" ربي جاكوب"، الأحداث المغربية، 5 ماي 1999.

من خلال هذه النماذج، نعاين أن التلغظ يضمن تلفظاته سخرية لاذعة موظفا بحصافة الثقافة الشعبية، ومشيدا على أنقاض اللغة المؤسسية مواقف سياسية مرهنة على التحديث وبناء دولة الحق والقانون والتعجيل بالإصلاحات السياسية والاجتماعية ودمقرطة المؤسسات (وفي مقدمتها القضاء). ويمكن لكل ملفوظ أن يقرأ - على الأقل - من زاوية تشاكلين : أحدهما سطحي، وآخر عميق.

1 - الملفوظ

- 1 : الترحيب بزائرة أمريكية بطريقة ممزوجة بالدعابة.
- 2 : نقد سلوك المهللين والمرحبين.

2 - الملفوظ

- 1 : نوع من أنواع الصرع الذي يفسر شعبيا كمس من الشيطان.
- 2 : استثناء بعض السلوكات التي تتميز بمنطقها الخاص من المحاسبة.

3 - الملفوظ

يقوم التشاكل على أساس التقابل والتعارض بين مقولتين :

الملائكة	البرلمان /
[+ ملاك]	[+ إنس]
[+ براءة]	[+ ذنب]
[+ صفاء]	[+ ضبايية]
[+ قدسي]	[+ دنبوي]

- الملفوظ 4

يحيلنا إلى طبيعة التجربة الديمقراطية بالمغرب من حيث اتساع الهوة بين الشعارات والخطب الطنانة المصاحبة للممارسات اليومية المتخلفة حضاريا.

- الملفوظ 5

يتجانس مع الملفوظ الأول، ويسرد باختزال شديد وسخرية حادة وقائع المؤتمر اليهودي الذي انعقد بمدينة الصويرة، وجمع النخب اليهودية المغربية بالداخل والخارج.
4-7 لا تخلو "الحقيقة الضائعة" لمصطفى العلوي من إثارة خطابية، ومن دعابات معبرة، ومن تصيد الأخبار الطرية والطريفة.

- 6- "لمن تدق الأجراس عندنا" ؟ 6 نونبر 1998.
- 7- "فاس على وزن "تكساس" : عدالة "الشريف" وممارسة "الكوبوي" ، 13 نونبر 1998.
- 8- "المغرب مأساة شكسبيرية أو خرق الدستور ... نشر المحذور" ، 20 نونبر 1998.
- 9- "اللي سكت نجا أو سياسة الصمت المفروض" ، 27 نونبر 1998.
- 10- "الغدة تقتل ... عندما يصبح "أندري" وزيرا للمسلمين" ، دجنبر 1998.
- 11- "حكومة التناوب بين التسيير والتبذير" ، 11 دجنبر 1998.
- 12- "بربر المغرب عند رسول الله" ، 15 يناير 1999.
- 13- "الحالة "واقفة" واليوسفي "جالس" ، 5 فبراير 1999.
- 14- "نحن الجزائر أو المذبوحة أو المسلوخة : ماذا لو بعث يومدين من قبره ؟" 19 فبراير 1999.
- 15- "المغرب وسياسة الدراري في انتظار هيلاري" ، 5 مارس 1999.
- 16- "أصحاب الحال يخططون للمستقبل في دكالة ؟" 7 ماي 1999.
- 17- "كم من فظائع ارتكبت باسم حكومة التناوب ؟" 4 يونيو 1999.

يتبين بعد فحص هذه العناوين المفكر فيه بإمعان، أن الملفوظين السادس والسابع يستحضران الثقافة الأدبية (هنغوي وشكسبير)، وأن الملفوظ السابع يحيل إلى أسطورة راعي البقر التي تستضمّر راعي الأمن في أقصى الغرب الأمريكي، وأن الملفوظات التاسع والعاشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر توظف الموروث الشعبي من أمثال وحكم. وأن الملفوظين العاشر والسادس عشر يبعثان على التندر. وما يلفت النظر كذلك هو مجازة القدماء في تفتية فواصل الكلام (الدراري/هيلاري، فاس/تكساس، الدستور/المحظور)، وتشغيل كلمات لها نكهة أو رنة خاصة في الثقافة الشعبية. فـ"أصحاب الحال"، هم المتحكمون في محرار الطقس والمناخ، ويقصد بهم رجال المخزن من قواد ومخبرين ووزارة الداخلية.

8-4 مقتطفات صحفية :

1- "بعد غولف سطات وملف التعمير وقضية "أمستي"، والسلطة على العمال، "التلفزة تتحرك" على خطوط التماس بين اليوسفي والبصري". نور الدين مفتاح، الصحيفة، ع. 3، 1998.
2- "السنوسي يسجل دخوله إعلاميا": ملفي عالق والتلفزة زنزانة". أحمد قنديل، الصحيفة، ع. 2، 1998.

3- ركن : نخبكم. "هنا الوردة ... هناك يرقصون"، فاطمة البوكيلي، الصحيفة، ع. 3، 1998.
4- ركن بالجهر. "يا أصدقاء" بينوشي : اتحدوا" عبد الرحيم تفتوت، الصحيفة، ع. 7، 1998.
4-9 بورترية : "عبد السلام ياسين : تحولات "الأمير بوذا" في العزلة 367".

ستعود الآلهة التي بكيتها

دائما

وسيعيد الزمان نظام الأيام

الخوالي

لأن الأرض

ارتجفت بنفس نبوي

"نيرفال"

أنا صوت من سيصرخ في الصحراء"

يوحنا أحمد قنديل، الصحيفة، ع. 33، 1999

10-4 استجواب :

"قبيلات أبراهام (السرفاتي) الجميلة"

"يستحضر (المواطن)" رولاندو، وبييطو، وبييلي، وأبراهام السرفاتي ذكرياته مع السلطات

المغربية"، أسبوعية، لوجورنال، ع. 71، 1999.

تبرز هذه الأمثلة عمليات التناس التي يقوم بها المتلفظ لتحيين نصوص مغيبية، وتشغيلها كحقول ملغومة مشرعة على تأويلات مختلفة. فالسرفاتي المواطن المغربي يدخل في لعبة تناصية رياضية، بحكم أن البرازيل معروفة في المتخيل الشعبي كبلد كروي. وهكذا تتناص السياسة والرياضة لفضح أحابيل الإبعاد والإقصاء. ويمارس السرفاتي على نحو بييطو ورونالدو اللعبة نفسها. ولكنه يختلف عنهما في كون اللعبة التي يمارسها خاضعة للمزاج.

ويلعب المورى دورا أساسيا في توسيع المساحات النصية، وإعطائها أبعادا تداولية، وحض المتلقين على تشغيل خلفياتهم المعرفية لملء بياضاتها وفرحتها. فالأهم ليس هو تقديم المعلومة، بل إشراؤها على تأويلات مختلفة، وتضارب الناس في فهمها وإدراك المقصود منها. وهذه اللعبة اللغوية لا تتأتى إلا بالحنكة والمراس. ومن ثمة يبرز البعد الأسطوري في الخطاب السياسي.

5- على نهج الختام

أود أن أعترف بأن ما قدمته هو غيض من فيض، وأنني اكتفيت بأمثلة وعينات تحتاج إلى مزيد من الفحص للخروج بخلاصات وتعميمات، وأن آليات النظرية السيميائية وعملياتها الإجرائية لم تستخدم بشكل منظم وممنهج، وذلك يرجع بالأساس إلى طبيعة وسعة المتن المعالج، وإلى مقتضيات التخصص التي تفرض فهجا حصيفا وإشكالات مصوغة بدقة وإحكام.

ومع ذلك، وجبت الإشارة إلى أن المحلل لا ينطق من وصفة جاهزة، وأنه يتوفر على هامش واسع من "المناوره" للمواءمة بين المنطق الجهي وسيميائية العمل وسيميائية الأهواء والتلفظية والتداولية. فعلى مستوى البنية الكبرى، تم الاعتماد على البرامج الحكائية والخطابية والاستهوائية التي يحدثها الوصف الدقيق للمتاليات الخطابية والملفوظات النصية. أما على مستوى البنية الصغرى، فقد تم الارتكاز على مفهوم التشاكل مقرونا بدينامية التلفظ التي تعبد الطريق لاستجلاء المميزات والمقومات النصية.

ومن بين الخلاصات التي نخرج بها من تحليل المتن، هو حفول العينات بمادة لغوية ثرة، تحتاج إلى دراستها للوقوف أمام ظواهر التناس والمورى وطرائق التشخيص، وتقنيات الخطاب والتلفظ. سادت في مرحلة معينة مناهج تحليل محتوى الخطاب السياسي، ولم تعر كبير اهتمام لطريقة تشغيل اللغة. وهي استراتيجية يعتمد عليها السياسي بوعي أو بدونه لتمرير رسائله الممغزة إلى فئات معينة. وكثيرا ما يغلف هذه الوسائل بلقائف من الأمثلة ورموز القدسي وثقافة المتخيل الشعبي لإقناع المتلقي وسلب قدرته على المقاومة والمواجهة. ويتطلب تحليل الخطاب السياسي بمختلف أنواعه كفاية موسوعية لتحسين أحداث تاريخية ووقائع سياسية، وتشغيل الأدوات اللغوية والتقنيات الخطابية والسردية. ومن بين الظواهر التي تلعب دورا جوهريا، نذكر التناس الذي يمكن من ولوج مساحات نصية تتحاور فيما بينها، وتتشابك وتتداخل لتسعف القارئ على أبعاد معرفية وتأويلية لم تكن في الحسبان.

الهوامش

- 1- النظرية السيميائية هي وليدة النبوية اللسانية والأنثروبولوجية، وتعرف أيضا بمدرسة باريس. وقد تمخضت أعمالها عن مبدعها كرىماص في كتابه الدلالة النبوية (لاروس، 1966). وقد سبكت مفاهيمها الخاصة، وجمعها كرىماص وكورتيفس في المعجم المعقلن للنظرية السيميائية (هاشيت، 1979).
- 2- الفقيه محمد البصري، "الدمقرطة بالمغرب: الحصيلة من سنة 1906 إلى حكومة اليوسفي"، أسبوعية الصحيفة، العدد 24، فبراير 1999، ص 5/4.
- 3- يتناس هذا الركن الإعلامي مع قولة أحد رؤساء المكسيك السابقين: "إن المكسيك بعيدة من الله... وقرية من أمريكا".
- 4- نشير في هذا الصدد إلى أعمال روسيل (الدلالة والحقيقة، فلانريون، 1969)، فتكنشتاين (المنشور المنطقي - الفسفي، كاليمار، 1961)، وايكو (القارئ في الحكاية، كراسيه، 1979).
- 5- أنظر فيما يخص مفهوم التحقق السيميائي المعجم، م 1، ص. 417.
- 6- أجرى حسن نجمي مع الفقيه البصري حوارا موسوما بحوار سير ذاتية، الاتحاد الاشتراكي، دجنبر 1998 / يناير 1999.
- 7- الأعداد التالية من جريدة الأحداث المغربية:
 - العدد 53، 22 دجنبر 1998. - العدد 66، 6 يناير 1999.
 - العدد 52، 21 دجنبر 1998. - العدد 177، 18 ماي 1999.
- 8- ربما أحال عبد الكرىم الخطيب إلى قصيدة أخرى من قصائد عنتره، أما معلقته فميمية تبدأ بهذا المطلع:

هل غادر الشعراء من متردم	أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عيلة بالجواء تكلمسي	وعمي صباحا دار عيلة واسلمي
- 9- انظر في هذا الصدد رولاند بارط، الغرفة النيرة، ترجمة ادريس القري، مراجعة محمد البكري، منشورات فضاءات مستقبلية، 1998، ص. 28.

